هذيان 447

لخضر لخذاري 20-02-2018

مدينة باراداسيا - مستشفى الأمراض العقلية

قبل سبع سنوات

"سببت تلك المريضة مشاكل لم يتسبب بها أيّ مريض آخر حتّى الآن!"

في تلك الصّبيحة كان مكتب مدير المصحّة العقلية هادئاً. في العادة، كانت فوضى المرضى تُسمع في الأرجاء، لكنّها كانت تعطي نوعاً من الحياة الغريبة لهذا المكان المقيت.

أمسك الدّكتور روكس فنجان القهوة وهو يفكّر.

***

- "دعوني.. دعوني!"
- "اهدئي يا فتاة!"
- "أمسكاها جيّداً! لا يمكنني حقنها وهي تتحرّك هكذا!"
- "أنا أبذل جهدي، لكن هذه الفتاة قويّة بشكل غريب!"

كان الدكتور فرويد ومساعديه يحاولون حقن النّزيلة الجديدة بالمهدّئات. تحت أصوات استهجان بقيّة المرضى، الذين كانوا يكرهون هذين المساعدين بالذات!

- "هذا جزاء تبوّلك في القسم أيّها القذر! عاقبيه يا أستاذة!"
- "ستعيد قارورة حليب ابني يا فريد، لنعد الصفقة قبل أن ينتهي الأمر!"
- "اسمه الدكتور أفروديتي أيّها الغبي، لن اكرّر هذا مرة أخرى!"

وكان أحدهم ينطّ هنا وهناك يصرخ بفزع "نملاتي، ستدوسون نملاتي أيّها المجانين.."

لم يستطع أحد مقاومتهما من قبل، الأمر الذي جعل من هذا الحدث شيئاً جديداً.

- "ممتاز!"
- "اللعنة، كان هذا كابوساً! لم تتصرّف هكذا منذ سنوات، لا في بيت الأيتام ولا في المستشفى!"

تمدّ الفتاة يدها مقاومة الإعياء الشّديد "حدّثني، أنت تقلقني.."

أخيراً.. همدت الفتاة وانزاح الثّقل من على أكتاف الدكتور والمساعدين.

- "مـ.. مهلاً.."
- "ماذا يا دكتور؟"

قام فرويد بجسّ نبضها، فجأة أصابته الصّدمة: "لـ.. لقد ماتت.."

***

كانت فرقة تتكوّن من خمسة أفراد من التّدخّل السريع تتقدّم بسرعة في أحد شوارع حيّ قديم مهجور في نفس المدينة.

- "ريم، حافظي على هدوئك وسنكمل الأمر بسرعة."
- ".. "
- "تبّاً، حاولي أن لا تفسدي الأمر!"

قاموا بالتّوقف عند باب أحد البيوت المهجورة في وضع الاستعداد.

ترتفع يد القائد معلنة العد التّنازلي بالإشارة: ثلاثة، اثنان، واحد.

دخل الخمسة في انتباه شديد وقاموا بالتّفرق.

- "المطبخ، آمن."
- "الحمام، آمن"

صعد ثلاثة منهم إلى الطابق العلوي، فتح أحدهم الباب وهمّ البقيّة بالدّخول. فجأة صرخ أحدهم مهدّدا: "ضع يديك خلف رأسك وقم بالانبطاح الآن! قلت الآن!"

***

في باحة ذلك البيت المهجور كانت ريم تضرب الخاطف بقساوة وهو منبطح على الأرض يتلوّى.

"تلك الفتاة.." ثمّ أعادت الكرّة حتّى صرخ.

"تلك الفتاة كانت في سنّ ابنتك!"

كان بعض زملائها يراقبون ما يحصل دون أن يتدخّلوا، إلاّ أنّ القائد نصحها قائلاً: "حاولي أن لا تحدثي أيّ رضوض أو جروح وإلاّ سنُعاقب."

"ليكن.." ثمّ ضربته على معدته حتّى ملأت صرخاته الأرجاء.

في المنزل وبالتّحديد في تلك الغرفة التي كانت الطفلة محتجزة فيها.. كانت شبه مظلمة، لكنّ شمس الظّهيرة تخترقها بشعاع لطيف، يجلس أحد أعضاء الفريق. اسمه شعاع.

كانت نظراته غارقة في الفتاة التي كانت لا تزال مشغولة بصناديق الألعاب التي قدّمها لها خاطفها، وفي هذه اللحظة صعدت فيكتوريا إلى الغرفة وقامت بالجلوس إلى جانبه دون أن تنبس بأي كلمة.

بعد لحظات، اعتدل شعاع في جلسته وقال: "لطالما تمنّيت ابنة.." عندها نظرت إليه زميلته.

***

صرخ الخاطف في حين كان رمزي يقوده إلى السّيارة: "أنا لم أمسسها بسوء، أقسم بروح أمّي!" لكنّ ذلك لم يشفع له. أمسكه شعاع من كتفه وقال: "يمكنك قول هذا في المحكمة، مهمّتنا كانت القبض عليك فقط.."

عندها نظر إليه الجاني وصرخ: "حقاً؟ يمكنك قول هذا لزميلتك المخبولة التي كادت تقتلني!" في ذلك الحين التفت شعاع إلى زملائه وقال: "هل رأى أيّ شخص منكم ريم تضربه؟" عندها علت الهمهمة: "لا.. من ريم هذه؟!"، "هل قال أحدكم شيئاً؟"، "ما هذا الهراء الذي أسمعه؟"

ثمّ نظر مرّة أخرى إلى المقبوض عليه: "أنا آسف لا أصدّقك."

***

في القسم الطبّي، فيكتوريا وشعاع ينتظران انتهاء الفحوصات التي تخضع الفتاة لها، خرج الطبيب واتّجه إليهما: "الفتاة بصحّة جيدة سواءاً جسديّاً أونفسيّاً، لا يبدو انّها تعي أمر اختطافها حتّى."

"أنا سعيدة بهذا!" ثمّ التفتت إلى زميلها قائلة: "هل اتّصل أيّ شخص من ذويها؟"

"لا، حتّى أنّه لم تبلغنا أيّ شكاوي بشأن أيّ اختفاء." في تلك اللّحظة قال الطّبيب: "في الواقع هناك شيء غريب.. الفتاة لا تحمل أي زمرة دم معروفة." نظرت إليه فيكتوريا مستغربة: "ماذا يعني هذا؟" وضع الطّبيب يده على ذقنه مفكّراً: "لا أدري، في أغلب الأحوال قد تكون طفرة جينيّة عاديّة."

***

في ذلك المساء في الحديقة العامة، كانت فيكتوريا تجلس بمحاذاة شعاع كما جلست بقربه في تلك الغرفة: "إذا لماذا لم تتزوّج؟" نظر إليها شعاع مستغرباً. عدّلت جلستها وأضافت: "أنت تريد ابنة، فلماذا لم تتزوّج."

- "لا أدري."

اقتربت منه وهي تتفحّصه في استغراب: "أنت لا تدري!" ثمّ عدّلت في جلستها من جديد وقالت: "ما رأيك أن ننجب، أنا وأنت!" نظر إليها ثمّ أمسكها من وجهها وفحص أحد عينيها. عندها قالت: "ماذا؟!" بعدها قام بالرّجوع إلى وضعية جلوسه الأصليّة مطرقاً في التّفكير، لكن بصوت مسموع: "أيّ مادة تقومين بتعاطيها يا ترى.."

قامت من مكانها وجلست في حجره وقد أصابه الذّهول: "ماذا تفعلين؟!" دون أن تنظر إليه قالت: "أنا أحاول أن أنال إعجابك لكن قلبك مصنوع من الفولاذ."

ودون أن يحرّك ساكناً قال: "جميل، والآن قومي." بعدها قام بدفعها حتّى سقطت وهي تصرخ.

في هذه الأثناء رنّ هاتفه.

***

في مكتب القائد سانتوس.

"هذه الفتاة ليس لديها أيّ أهل بالمرّة، هل هبطت من السّماء؟" قال القائد الذي نظر إلى السقف وأضاف: "لقد سألنا الخاطف وقد أصرّ أنّه كان يراها دائما في الشّارع ولم يصادفها يوماً وهي ترافق أحداً."

"هذا غريب!" قالت فيكتوريا وهي تفكّر فيما سمعت: "لديّ اقتراح، لماذا لا يتبنّاها شعاع، أو ربّما يبقيها عنده حتّى يظهر أحد ما."

نظر إليها شعاع في استغراب: "أفكارك اليوم غبيّة جدا، في العادة أفكارك غبيّة فقط." وبعد أن سمعت هذا قامت من كرسيّها وأمسكت بكرسيّ زميلها الذي بدا أنّه تراجع عن ما قال: "حسناً، حسناً سأفكر في الموضوع.."

ولىّ القائد ظهره للشابّين وقال في نفسه: "هذه الشّابة تحصل على ما تريد دائماً."

***

لقد اقتنع شعاع بكلام فيكتوريا وقام فعلاً باصطحاب الفتاة، حيث أنّه أمسكها من يدها.. فيكتوريا قامت بالمثل، وهذا جعلها تفكّر ثمّ تقول: "هل رأيت؟ نحن نشبه أسرة صغيرة وسعيدة." بعدها توقّفت وصرخت في سعادة: "شعاع! لنتزوّج! الآن عندنا ابنة متبنّاة، لا ينقصنا إلاّ العرس!" ودون أن تنظر، قالت الفتاة الصّغيرة وكأنّها تخاطب نفسها: "كلمة متبناة هذه تجرحني."

نظر إليه الإثنان في اندهاش لأنّها لم تتحدّث أبداً قبل الآن، جثت فيكتوريا أمامها معتذرة: "آسفة جداً لم أكن أقصد أن أجرحك، لقد قلت هذا بعفويّة." بعدها انحنى شعاع: "اعذرينا يا عزيزتي، فيكتوريا لم تكن تقصد أبداً." ودون أن تنظر تقدمت الفتاة لتكمل المسير فيما كانا ينظران. بعد لحظات توقفت ثمّ قالت: "بالمناسبة في أيّ اتّجاه هو بيتنا الجديد؟"

***

في بيت شعاع، كانت الفتاة منبهرة بسبب ترتيبه، رغم انّه عاديّ جدا. لذا انتهز صاحبه الفرصة ليسألها عن اسمها.

ودون أن تنظر إليه، قالت في ذهول وسعادة وهي تتقدّم لتستكشف منزلها: "اسمي هذيان أربعة أربعة سبعة." وكما هو متوقع، لم يجد الإثنان شيئاً ليقولاه بسبب غرابة الإسم، وحتّى لا يجرح مشاعرها، سألها مرّة أخرى، وقد كان السّؤال عن والديها. نظرت إليه، ثمّ وضعت إصبعها على فمها ونظرت إلى السّقف: "فلاديمير.. نعم فلاديمير. لقد سمعت أحد أصدقائه يناديه بسيّد الإنتـ.. الإستنسـ.. آه نعم، الإستنسياخ!" قالت مهللة.

"الإستنسياخ؟" ردّدت فيكتوريا، ثمّ نظرت إلى شعاع الذي قال: "الإستنساخ.."

ساد الصّمت المطبق للحظات، فالأمر كان غريباً جدّاً ولا يمكن استيعابه مباشرة.

***

في مكان غريبٍ يشبه المستشفيات، كان أحدهم يقف مع عجوز بدا انّه يفكّر في شيء ما، وقد قال مخاطباً ذلك الشّخص بعد لحظات: "لا يمكننا أن نتخلّص من إزعاج الحكومة إن عرفت سرّ تجاربنا الصّغيرة."

- "ما الذي تقترحه إذا يا فلاديمير؟"

- "استرجاع فأرة التجارب أمر سهل، لكن ما أخشاه هو أنّ الفتاة تمّ فحصها. وهذا خطير بالنّسبة لنا.."

- "حسنا.. لكن ماذا بشأن روشييه؟"

- "روشييه كان يريد الإعتداء على الفتاة، وأنا من مناصري حكم الإعدام.."

- "بالتأكيد." بعدها قام الرّجل بالمغادرة.

***

في السّجن، وفي زنزانة الخاطف بالذّات، والتي كانت زنزانة جماعيّة، نظر أحدهم إلى النّزيل الجديد وقال: "أنت لم تعرّفنا بنفسك ولا بالجريمة التي اقترفتها."

عندها قال آخر: "من يدري، ربّما ستنجح في مسابقة *أسوء جريمة* السّنوية." عندها قام السّجين الأوّل بإبعاد الثاني محاولاً إخراسه: "ريكو أيّها الغبي، لا يجب الثّقة بالنّزلاء الجدد من الوهلة الأولى حتّى يثبتوا أوّلاً أنّهم أهل لها!" بعدها التفت إلى النّزيل ليواصل الكلام معه، لكن لم يستطع ذلك لأنّ شرطيّاً فتح باب الزّنزانة وقال: "روشييه، لديك زائر."

- "زائر؟ أيّ زائر؟"

تمّ اقتياد روشييه في الرّواق وقد كان يلتفت يميناً وشمالاً وقد كان يخاطب نفسه: "لا يبدو هذا صحيحاً.."

قام الشّرطي بفتح باب غرفة قديمة وأدخله هناك وقام بالإطلاق على رأسه.

***

في مركز الشّرطة دُقّ باب مكتب سانتوس.

"تفضّل."

دخل زوجان إلى المكتب وقد قام صاحبه بالإيماء بالجلوس. جلس الإثنان وقد بدا الرّجل متوتّراً: "سيّدي، لقد تمّ اختطاف ابنتنا منذ شهور وقد سمعنا أنّكم قد وجدتموها في مدينتكم.." ثمّ قالت المرأة التي بدت حزينة وتحاول اقتناص أيّ أمل في هذا الوجود: "لقد جئنا إلى هنا وكلّنا أمل في أن نجد وحيدتنا."

- "هذا غريب! لماذا لم تقدّما بلاغاً باختفائها من قبل؟"

- "سيّدي لقد قدّمنا بلاغاً بالفعل، لكن ليس هنا، بل في مدينتنا نحن! وقد باءت كلّ الجهود التي وضعت في سبيل إرجاعها بالفشل، إلى أن سمعنا الخبر في الأنباء."

- "أنا آسف حقاً لهذا. لقد وضعنا ابنتكم في بيت أحد عناصرنا وهي في أمان تام."

قفزت المرأة من كرسيّها في حين زرع الأمل في وجه الرّجل: "حقاً؟ أرجوك يا سيّدي فكلّنا شوق لرؤيتها، لم تهنأ لياليّ، ولم آكل الطّعام إلاّ لأعيش وأراها.."

***

في تلك الليلة في بيت شعاع، كانت فيكتوريا تلعب مع الفتاة التي أغرمت بها من فورها على ما يبدو: "سأنقذك أيّتها الأميرة وسنعيش سعداء." قفزت فيكتوريا من الأريكة وكأنّها تقوم بذبح وحش أسطوريّ بسيفها العملاق. قامت الفتاة بالتصفيق والضّحك بعد أنّ انحنت فيكتوريا تحيّة لها بعد قتل ذلك الوحش: "فيكتوريا، سنعيش الآن بسعادة بعد أن كان هذا الوحش ينغّص حياتنا!" ثمّ توقفت فجأة وهي تفكر: "لكننا فتيات فكيف سنتزوّج؟"

عندها قالت فيكتوريا وهي تضحك بإحراج: "عزيزتي نحن نلعب لعبة خياليّة فقط!"

في تلك اللحظة طرق الباب. فتوجّهت فيكتوريا إليه لتفتح. لقد كان سانتوس برفقة والديّ الفتاة: "فيكتوريا؟"

- "أهلاً سيّدي.." ثمّ نظرت إلى الشّخصين فقال مجيباً عن تساؤلها الذي يظهر في عينيها: "إنّهما والدا الفتاة، وقد قدما من مدينة أخرى. لا أريد تصوّر كمّ المعاناة التي عاناها ثلاثتهم.

دخلت المرأة التي صرخت وهي تبكي: "سيرينيتي عزيزتي، أين غبتي عنّي كلّ هذه المدة؟"

نظرت الفتاة إلى المرأة ثمّ نظرت إلى فيكتوريا وقال: "فيكتوريا؟ من هذه؟" عندها التفت إليها فيكتوريا التي جمدت لحظة في مكانها وسقطت.

- "فيكتوريا.." قال سانتوس الذي سقط بدوره. لقد أرداهم الرّجل الذي ادّعى أنّه والد الفتاة التي جمدت في مكانها ولم تقاوم المرأة التي حملتها وقالت: "استعمال سيارة الشّرطي سيكون غباءاً صرفاً، كيف سنذهب الآن؟"

- "سنمشي بالتّأكيد، نحن نقوم بنزهة مسائية مع ابنتنا، فأيّ شيء غريب في هذا؟" وقد خرجوا بعد أن أغلقوا الباب.

كانت الفتاة تبكي في صمت.

رجع شعاع إلى البيت يحمل كيسا، قام بفتح الباب.. لقد فوجئ بشدّة عندما رأى جثّتي فيكتوريا وسانتوس.

"شعاع، لنتزوّج!" لقد كان ذلك صدى ذاكرته وهو ينظر إلى فيكتوريا المرحة وقد فارقت الحياة.

وهو يجري في الشّارع كالمجنون، شاهد الفتاة غير بعيدٍ عن منزله وهي تبكي في صمت حول جثّتي أولائك الأشخاص الذين ادّعوا أنّهم والديها، أسرع إليها وضمّها. بدأت تحاول بكلّ جهدها أن تبعده عنها، لكن دون فائدة. في تلك اللّحظة بلّلته بدموعها، فأحسّ فجأة بثقل جسده، وبدا كأنّه يغرق في محيط بارد ومظلم. سقط على الأرض فبدأت بالصّراخ: "شعاع.. ابقَ معي.."

***

بعد سنتين. في الميتم كانت تنظر في الخواء الذي لم يكن احد يراه غيرها، وقد كنت لتظنّ انّها ميتة لو أنّها لم تكن جالسة. دخل العجوز فلاديمير وذلك الرّجل، وهو ينظر إليها في حين كان أحد العاملين في الميتم يشرح له كي أنّها لم تبدي أي إشارة للحياة.

بعد أن غادر ذلك العامل قال العجوز لمرافقه: "ربّما يجب أنّ نتخلّص منها فهي تجربة فاشلة."

- "لكن يا سيّدي، إلى الآن لم أفهم السّر الذي يكتنف التجربة. ماذا كان الدافع الذي جعلك تستنسخ هذه الفتاة؟"

- "هل تذكر روشييه؟ لقد كان مختلاً بائساً، وهذا ما يعلمه الجميع عنه. أمّا هذه الفتاة فهي مستنسخة بالتّأكيد. في أول الأمر كان هدف تجاربنا هو اكتشاف طريقة للقضاء على الخلايا السرطانيّة. في تجاربنا اكتشفنا أنّ تلك الخلايا بما فيها الخلايا العاديّة تقوم بالدّفاع عن نفسها بطريقة قاتلة، ثمّ تقوم بالإنتحار. روشييه كان في مرحلة أولية من سرطان الجهاز التناسلي. وللحفاظ على الكتمان بأكبر قدر ممكن، قررت إجراء التجربة عليه دون ان يشعر، فوضعنا الفتاة نصب عينيه. أردت أن يبدو كلّ شيء عاديا.. تلك الفتاة كانت مستنسخة من جسد حفيدتي قبل أن تموت."

- "ولماذا حفيديتك؟"

- "يال سخرية القدر.. بسبب مشاكل أخلاقية.."

نظر إليه ذلك الرّجل ثمّ أخرج مسدّسه وقال: "لتغفر لنا الفتاتان." وأطلق عليه، ثمّ أطلق على نفسه.

منذ تلك الليلة كانت الفتاة تصرخ بجنون إلى أن تم زجّها في مشفى المجانين، هدأت عدّة سنوات ثمّ بدأت بالصّراخ مجدّدا إلى أن قرّر الدكتور فرويد أن يحقنها بنوع قويّ من المهدّئات على مرأى من بقيّة المرضى.